غلاف ديوان « قصائد ليست محددة الاقامة »

كلمات من الارض المحتلة

سالم جبران :

قصائد ليست محددة الاقامة

ان الهروب من الواقع الى ما ورائه ، والسقوط في شرك الميتافيزيق ، لا يعني بحال من الاحوال استبدال فعل ثوري مستحيل بفعل ثوري ممكن ، او استبدال فعل ثوري عملي بفعل ثوري ذهني ونظري ، انما يعني ردة فعل سلبية على فعل قمعي هو سلبي ايضا ، ويعني ايضا اطلاق غيوم تضليلية مشبوهة في سماء الواقع المادي وصراع متناقضاته الدائر ، وذلك من خلال تغطية القمع الذي تمارسه القوى المضادة للانسان بغطاء ديماغوجي منسوج من خيوط السفسطة والانحراف عن الحقيقي الى الهامشي والمختلق ..

فالفعل الثوري ضد القمع الواضح يجب ان يكون ايجابيا وواضحا ايضا . ان السكوت والانصياع واشكال الحياد المتواطىء مع الفعل القمعي المادي وتغطية هذا القمع « بفعل » ميتافيزيقي هروبي غير فاعل هو تأكيد للفعل القمعي وتسميد للتربة التي غرس بذوره فيها .

فالفلاح الذي يعاني من سياط الاقطاعي لن يدخله التخيل الميتافيزيقي الى مشفى ناجع لجراحات شقها السوط في جسده ، ولن يعوضه عن رغيف حرمه الاقطاعي منه .

الفعل الثوري هو مجابهة الاقطاعي والصراع معه حتى استرداد حق الفلاح المستلب اليه ، ودور الشعر هنا حث الفلاح وتوسيع آفاقه لهزم اليأس المتولد عن الصراع اللامتكافىء عادة ،والتأكيد على حتمية الانتصار على الظلم الواقع فعلا ، اذا ما تمسك الفلاح بقضيته وامتلك الاداة الثورية للقضاء على الاقطاعي وظلمه ، والطريق الاولى الى امتلاك هذه الاداة هو وعي القضية واستقرار الامل بالنصر في ذهن صاحب القضية الحقيقي .

وهذا الدور - نقل الوعي الثوري الى الفلاح - يحدد الشكل الذي يساعد الكتابة الفنية على قيامها بوظيفتها الاجتماعية والسياسية .. وهذا ليس الغاء للفن وحدا من حريته انما هو رسم توضيحي لمساره العام وترسيخ للقاعدة التي يجب ان ينطلق منها الى آفاقه الرحبة لتحقيق هدف الفن الاساسي : خدمة الانسان .

اننا اردنا أن نقول من خلال ما سبق « ان الشكل هو المضمون بعد تفاعله مع الفن » .

ان طرح مسألة الشكل والمضمون في هذه السطور لم يكن جذافا ، انما ضرورة حتمها تناولنا لديوان « سالم جبران » الثاني : « قصائد ليست محددة الاقامة » (١) بعد ان تناولنا ديوانه الاول « كلمات من القلب » (٢) .

الذاكرة والقصيدة

اكدنا في تناولنا لديوان « كلمات من القلب » ان الشاعر « سالم جبران » يعتمد كثيرا اثناء كتابة قصائده على الذاكرة وخاصة ما اختزنته من ايام الطفولة ، لكننا سنجد في هذا الديوان الذي ضم ايضا عددا من قصائد الديوان السابق !! سنجد ان الشاعر يعتمد على ما اختزنته الذاكرة في الماضي القريب والقريب جدا .

لقد كان الشاعر واعيا ان قصيدته ملتزمة بقضية ، ولها وظيفة يجب ان تقوم بها ، اعني نقل الوعي الوطني الى الناس الذين يعانون الامرين تحت وطأة الاحتلال ، فكان يستمد مادة قصيدته من الواقع المعاش والهموم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المشتركة بين عرب الوطن المحتل .

لذلك كان شكل القصيدة الفني عند الشاعر يعتمد الصورة المادية ذات الدلالة الاجتماعية او السياسية او الاقتصادية ..

ولذلك كان يبتعد عن الغموض والتخيل الذي يشوب صور الواقع المادي ، فهو يقول في قصيدة « المأساة تصير خبزا يوميا » :

(الصور التي تطل / من خلال الاطر السوداء / تملأ صدر الصحف اليومية / ونشرة الانباء / خمس جنازات وعشرون من الجرحى ، / وليل كله / حوار مدفعية)

ويتابع :

(تموت من تثاؤب مدينتي البلهاء / لا هرج لا ضجيج شبان ، / وفي البارات : / نفس الاطر السوداء / ونشرة الانباء ..) .

انه يصور الحالة التي يعيشها عرب الوطن المحتل حيث :

(الموت كالزواج والطلاق صار رائجا / في وطني ، / وكل شيء غاليا صار / سوى الدماء / (٤) .

في هذه القصيدة يقوم الشاعر تجربة ناضجة ، فهو يقول لنا دون خطابية او تقريرية فجة ان الاحتلال الصهيوني اشاع الموت في الارض المحتلة ، وصار الموت عادة يومية ونغم روتيني .. فأصبح الدم رخيصا اذا ما قيس بالحرية المقتولة والوطن المغتصب .

وكما نرى فالكلمات بسيطة واضحة ، والصور حقيقية وذات دلالات واضحة ، وزغم النبرة اليائسة فالتحدي كامن في القصيدة ، ولكنه متفجر في قصيدة اخرى بنفس المستوى ، وهي

---

(٤) - راجع صفحاتنا الثقافية في عددنا الصادر يوم السبت ٩ أيلول ١٩٧٨ .

(٣) - « كلمات من القلب » ، سالم جبران ، صدر عن مطبعة دار القبس العربي في عكا ، يحتوي حوالي ٥٦ قصيدة قصيرة ، يقع في حوالي ١٠٤ صفحة من القطع الصغير ، الثمن ٣٥٠ أغورا .

(٤) - من ديوان « قصائد ليست محددة الاقامة » ، شعر سالم جبران . صفحات (٧٦ - ٧٧) .

(١) - « قصائد ليست محددة الاقامة » مجموعة شعرية للشاعر « سالم جبران » صدرت عن مطبعة النهضة في مدينة « الناصرة » في فلسطين المحتلة . ولديوان يقع في ثمانين صفحة من القطع الصغير ، ضاما اربعين قصيدة قصيرة ، كتب خطوط الديوان « عدوان ماجد » ونحن نتناول بالعرض الطبعة الثانية من الديوان ، هذه الطبعة التي صدرت عام ١٩٧٢ .

قصيدة « ما يشاء » . حيث يقول الشاعر :

(كان الجليل ناسا / وتربة وخضرة وماء / وبعد ان حرمت ان ازوره صار الجليل جنة / وناسه آلهة / وصار حتى ليله ضياء) (٥) .

ان هذه الصورة واقعية ومحسوسة بقدر ما هي جميلة ومحزنة ، فالجليل الذي كان « ناسا وتربة وخضرة وماء » صار جنة ربما يكون الموت واحدا من الطرق الموصلة اليها وناسه آلهة ولا ليل فيه .. ان هذه الاستعارات من التراث الديني كانت لتجسد عمق المأساة ، ولكن الشاعر يتحدى من حرمه زيارة الجليل قائلا :

(أقول للقياصر الصغار : ما أضعفكم / قد تحبسون خطواتي / لكن قلبي هائم في وطني / يزور أي بقعة يشاء / يفعل ما يشاء ..) (٦) .

ان النموذجين السابقين يؤكدان أن ذاكرة الشاعر هي منجم غني يقتلع منه الشاعر صوره ليبني قصائده ، واذا كانت الصور هي الحجارة فان الكلمات البسيطة والاسلوب الغنائي الواضح هي الاسمنت الذي يمكن الحجارة من التماسك والبقاء على ارض الثقافة العربية في الارض المحتلة مشكلة بناء صحيا يلجأ اليه المناضلون في الحر والقر عبر فصول النضال المستمر ضد العدو الصهيوني .

خطابية رديئة

وعندما يفتقر موضوع القصيدة الى مصادر موجودة في الذاكرة ، تسقط القصيدة ، وتخرج من

الشاعر « سالم جبران »

دائرة الشعر ، وتصبح نثرا خطابيا منظوما لا قيمة له لا على الصعيد الآني ولا في المدى الزمني القريب او البعيد ، كما حدث لشاعرنا في قصيدة « يولد من جديد » التي يحاول ان يقول فيها أن الانسان العربي يشهد ولادة جديدة تعيد اليه امجاده ، وتفسح له حيزا محترما في خارطة العصر الحضارية :

(يولد من جديد / اراه ، في مصانع الحديد / في حلوان / أراه بين الارض والسماء / في أسوان / وفي القرى المستيقظات / من دجى الصعيد) .

---

(٥) - المصدر السابق ، قصيدة (ما يشاء) . الصفحات (١٤ - ١٥) .

(٦) - نفس المصدر .

وتزداد القصيدة رداءة وسقوطا في « النظم » والمباشرة التقريرية عندما يقول :

(يولد من جديد / اراه في ظفار / يمتشق السلاح ، لا ينام / أراه فوق اليمن الجديد ، / لا ليل ولا امام / اراه في عدن / اذهب الى الجحيم يا مندوبها السامي، / وخذ مكانه في القصر يا عدنان / اراه في لبنان / اراه في العراق / اراه فوق كل شبر حررته كفه / أراه فوق كل شبر عنده ..) (٧) .

ان هذه القصيدة رغم الهم القومي الذي تعبر عنه والصدق ، لا تترك عند المتلقي التأثير الذي أراد الشاعر من قصيدته ان تتركه ليس لان كتابة القصيدة القومية تفترض بالشاعر ان يعيش في كل الاقطار العربية ويشحن ذاكرته بصور من الواقع وحركته فيها ، بل لان « سالم جبران » شاعر يكتب من الذاكرة ، فهو لا يستفيد من ذاكرته الا عندما يكون موضوع القصيدة ذات علاقة مباشرة بذاته الموضوعية ، به هو كمواطن يعيش تحت وطأة الاحتلال .. وهذا ما سنلاحظه في القسم التالي من دراستنا .

التجربة الذاتية

ان فرض الاقامة الجبرية على الشاعر ، اخذت حيزا مهما من تجربة « سالم جبران » في هذا الديوان ، والقصائد التي ترد فيها عبارة الاقامة الجبرية كثيرة وهي :

١ - قصيدة « حنين الى القرية » ص ٥ ، ٦ :

(يا قريتي القريبة البعيدة / وغاصب التراب والاشجار والازهار والهواء ، / لا يمنحني التصريح / وخطوتي سجينة في البيت ، / لا تحسن أن تطير ، كالقصيدة) .

٢ - قصيدة « بطاقة .. من بعيد » ص ٧ ، ٨ :

(وأفتح الباب لعام آخر / وأنت حيث انت ، يا انت / وفي سجني انا / وبيننا .. تصريح) .

٣ - قصيدة « رسالة الى أمي » ص ١١ :

(لا تقفي ، بعد ، على الشباك في انتظاري / جلالة السلطان لا يمنحني التصريح ،) .

٤ - قصيدة « لا وقت لليل » ص ١٣ :

(أقول لليل الذي يلف كل وطني / في هذه الايام / لم تعد الاقامة الجبرية / مرهقة ، / لدي الف شغلة انجزها / من قبل أن أنام / وان شعرت ، مرة بوحدة وحشية / بمسح حزن القلب لحن قادم / الي من محطة الاذاعة الليبية) .

٥ - قصيدة « حنين » ص ١٦ ، ١٧ :

(أحن والجبابر الانذال / يقيدون خطوتي / وان أتيت ثمن اللقاء يا حبيبتي : / أوامر اعتقال) .

٦ - قصيدة « توقيع على أمر الاقامة الجبرية » ص ١٨ ، ١٩ :

(صار غياب الشمس يعنيني ، / فبعد ساعة منه مكاني البيت / اقرأ او اكتب او انام . / ما شئت ، ولكن : / كله في البيت) (٨) .

ولكن الشاعر يؤكد في جميع هذه القصائد انه :

(يا وطني / ان سجنوا لي خطوتي / وغيبوا عني طلوع الفجر في الجليل / والارض ، / وشعبا هو فوق الموت / فلن تشل خطوتي / وسوف يعلو الصوت) (٩) .

ان الشاعر لا يخبرنا فقط عن فرض الاقامة الجبرية عليه من قبل الاحتلال انما يعلمنا كيف نستغل هذه التجربة النضالية لتنقلب تصرفات العدو التعسفية وبالا عليه ، فالشاعر يقرأ ويكتب ويزداد تمسكا بالحرية وهياما بالوطن .

وليست « الاقامة الجبرية » هي الموضوع الذاتي - الموضوعي الذي تتضمنه قصائد « سالم جبران » انما الحب ايضا هو موضوع آخر يأخذ حيزا لا بأس به من الديوان .

فالشاعر الذي يقول في قصيدة « لا وقت للغزل »:

(لحم ابي وامي / وأخوتي في النار / وانت تطلبين / أن أكتب في جمالك الاشعار) (١٠) .

يكتشف ان ثمة وقت للغزل ، رغم العدو ، ويكتشف ان الصهاينة يحاولون ان يحرموا المواطن العربي في الارض المحتلة حتى من حقه الانساني في أن يعشق ويحب ، وهو يكتب عن الحب والحبيبة في اطار القضية والوطن ، ففي قصيدة « وعد » يقول :

(أموت حنينا اليك / وجسمك زنبقة في يدي / فظلي معي ، / ودعيني اعيش / بغير انتظار / ولا موعد / سأدفن أمسي واعطيك يومي / ونمشي معا في ظلال الغد) (١١) .

او يقول :

(نقية انت كقطرة الندى / سخية انت كزخة المطر / ظلي معي ، / تكسري على ضلوعي ، / وأذيبيني ضبابا لاضم شامة / وحيدة كالله - ، / عند ضفة النهر /★/ عمري بلا عينيك جهد ضائع / وحينما أنت معي / في قبضتي القمر) (١٢) .

وفي قصيدة « حنين » ص ١٦ ، ١٧ ، يحكي الشاعر لحبيبته كيف انه يحن اليها حنين الجندي في مواقع القتال الى بيته وزوجته واطفاله ، وكيف انه يقطع ساعات طويلة وهو يفكر بها ، الا آن الصهاينة الانذال يقيدون خطوته واضعين بينه وبين حبيبته زنزانة سوداء .

ان الشاعر اذ يحدثنا عن تجاربه العاطفية ، يؤكد لنا في الوقت نفسه من خلال الصدق الفني الذي تزخم به قصائده ان هذا هو حال كل عاشق عربي في الارض المحتلة ، فهو يعبر لحبيبته

---

(٨) المصدر السابق ، قصيدة « توقيع على امر الاقامة الجبرية » ص ١٨ ، ١٩ .

(٩) نفس المصدر .

(١٠) : المصدر السابق ، قصيدة « لا وقت للغزل » ، ص ٤١ .

(١١) : المصدر السابق ، قصيدة « وعد » ، ص ٤٦ .

(١٢) : المصدر نفسه ، قصيدة « اغنية » صفحات (٢٧ - ٢٨) .

(٧) المصدر السابق ، قصيدة « يولد من جديد » . الصفحات (٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١) .